دراسات تحليلية :

ذو النـــون المصرى

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

بين ضفاف النيل ورمال الصحراء فى بلدة أخميم بمديرية جرجا من أعمال صعيد مصر ، ولد أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى سنة ١٨٠ بعد الهجرة ، وكان أبوه نوبياً جىء به من بلاد النوبة رقيقاً ثم أعتق . ونشأ ذو النون تهب عليه نسائم النيل الرطبة ، وتلفح وجهه رياح الصحراء الجافة ، كلاهما تحمل أسراراً غامضة وتوحى بعظمة الكون وخالقه ، وبين قوم محدودى المعارف ضيق أفق التفكير ، قضى أيام صباه .

فلما شب عن الطوق واتسعت مداركه ، ضاقت نفسه الكبيرة بهذا الجو الخانق المحدود ، فلم يجد سوى الخرائب المصرية يطوف بينها من بلدة إلى أخرى يدرس رموزها ويحاول حلها والوصول إلى أسرارها — وقد كان هذا الطواف المحدود عاملا من عوامل حبه التنقل بين بلدان العالم الإسلامى سعياً وراء بحثه عن الحقيقة ودراسته الصوفية — ولما لم يجد بين هذه الخرائب ما يشفى غليل نفسه ، راح ينشد الهداية فى جوانب الصحراء الواسعة علّه يصل إلى طلبته من المعرفة والعلم . وفيما هو فى حيرته ، سمع بسعدون الصوفى المصرى ، فذهب إليه وسمع منه فسحره حديثه وأشرب قلبه محبته ؛ فلقد وجد بعد العناء والتعب بغية نفسه وأمله المفقود ، وتتلمذ عليه ، ودرس الصوفية على يديه ، وسرعان ما أعجب الأستاذ بفصاحة تلميذه فقربه إليه وآثره بصحبته . وبجانب توفره على دراسة الصوفية كان يدرس الطب والكيمياء وعلوم السحر .

وذات يوم عاد إلى إخميم فوصلها ليلاً وسمع دفوفاً تضرب وشاهد قوماً يلهون ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له عرس . ثم سار قليلا فسمع نواحا ورأى نسوة يندبن ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له فلان مات . فقال : أعطى أولئك فما شكروا ، وابتلى هؤلاء فما صبروا . لله على ألا أبيت بهذا البلد . وانطلق لايلوى على شىء ، ترفعه رابيه وتخفضه واد ، هائما ينشد المعرفة ويبغى الوصول ، حتى بلغ بيت الله الحرام وزار القبر الشريف ، ثم تابع سيره إلى دمشق وزار كثيراً من النساك المقيمين فى جنوب إنطاكية ، وسألهم وسمع منهم . قال «زرت فى لبنان رجلا نحيفاً ضميناً يصلى . فسلمت فرد السلام وما زال فى ركوع وسجود حتى صلى العصر ، ثم جلس ولم يتكلم ، فطلبت منه أن يدعو لى فقال : آنسك الله بقربه . فطلبت منه المزيد ، فقال : من آنسه الله بقربه أعطاه أربعا . عزا من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنى من غير مال ، وأنسا بغير جماعة . ثم شهق فلم يفق إلا بعد ثلاث وأنا منتظر ، فلما أفاق قال : انصرف عنى بسلام . فقلت أوصنى قال : أحبب مولاك ولا ترد بحبه بدلا » .

عاد إلى مصر وقد روى ظمأه ، وأخذ ينادى بتعاليمه بين قوم ران الجهل على قلوبهم وعميت بصائرهم فما يفقهون قولا — وكان أول من تكلم عن علوم المنازلات ، فأنكر عليه أهل مصر هذا واتهموه بالزندقة والخروج عن الدين لأنه لم يكن لهم بهذا العلم عهد ، فقالوا أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة(١) — فاضطهدوه وسعوا به إلى الخليفة المتوكل ، فبعث إلى عامله على مصر فأرسله إليه ، فأتى به فى السجن . ولكن أصدقاءه وتلاميذه طلبوا له العفو من الخليفة وما زالوا به حتى أخرجه من السجن ، وجمع العلماء ليناظروه . وتحدث أبو الفيض وتحدث العلماء فما زال كلامه يعلو وكلامهم يهبط حتى صمتوا جميعاً وتحدث وحده . ثم وعظ الخليفة ، فبكى بكاء مرا . وندم على سجنه وقال : إذا كان هذا زنديقاً فما فى الأرض مسلم . ورده مكرماً . فدوى اسمه فى الآفاق وأقبل عليه الناس من كل صوب وحدب يلتمسون العلم عنده ويطلبون الرشاد على يديه .

* * *

وكان يعلم تلاميذه التوبة ويلقنهم كبح جماح النفس والاقلاع عن الغواية . وقد كان يفرق بين توبة الإنابة التى ترجع إلى خشية العقاب والخوف منه ، وبين توبة الاستحياء التى تستند إلى الاستحياء من رحمة الله سبحانه وتعالى . وكان يقول التوبة ثلاث : « توبة العوام وهى التوبة عن المعاصى ، وتوبة الخواص وهى التوبة عن الإهمال ، وتوبة المعرفة وهى التوبة التى تمنى الإعراض

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ح١

من كل شيء سوى الله » .

ومن تعاليمه عن الروح أن النفس هي العقبة الكأداء في سبيل الكمال الروحي لأنها خاضعة لرغبات النفع الذاتي ، ولذلك وجب على المتطلع إلى الله أن يحارب نزواتها ويتغلب عليها . ولما سئل عن الحجب الموجودة بين الله والروح هو أعظمها أثراً في إخفاء رؤية الحقيقة قال : « أخفي الحجاب وأشده رؤية النفس وتدبيرها »

ويقول إنه يمكن عن طريق كبح جماح النفس تخليص الروح من العقبات النفسية وإعادتها إلى أصلها الأول من الطهارة والنقاوة فتعود إلى اتصالها بالله .

فالعودة إلى الله لابد من تطهير النفس من الشرور وكبح جماحها عن الرغبات ومن أية صلة أخرى غير الصلة بالذات العلية ومن تعاليمه في ذلك : « لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة » .

وذل النفس ضروري للروح التي تأمل في أنس الله والقرب منه ، فكلما ازداد العارف في إذلال نفسه وإخضاعها ازداد قربا من الله ، فيقول « وما أعز الله عبداً بعز ، أعز له من أن يدله على ذل نفسه » لأن المريد عندما يبصر القوة السماوية وتتملكه عظمة خالق السموات والأرض يدرك كم هو ضئيل بالنسبة لهذه القوى فيمتلىء تواضعاً .. وفي ذلك يقول ذو النون « من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله تعالى فإنها تذوب وتصفو . ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته وجبروته » .

* * *

وكانت المعرفة أهم الموضوعات من تعاليمه ، فهو أول الصوفيين الذين تعرضوا للكلام عنها . ومن تعاليمه في المعرفة أن المعرفة بالله ثلاث ، أولاها معرفة التوحيد التي هي ملك المؤمنين جميعاً . وثانيتها معرفة الحجة والبيان وهذه هي معرفة الفلاسفة وعلماء الدين . وثالثتها معرفة صفات الله وهي معرفة أولياء الله الذين يتأملون الله بقلوبهم فيكشف لهم عما لا يكشفه للآخرين فيقول : « علامة العارف ثلاث : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطناً من العلم ما ينقض عليه ظاهراً من الحكم ولا يحمله كثرة نعم الله تعالى عليه ، وكرامته على هتك أسرار محارم الله تعالى » .

والمعرفة تقود إلى الحيرة ، ولكنها حيرة على نوعين : حيرة العامة وتؤدي بأصحابها إلى الزندقة والضلال ، وحيرة الخاصة وهي تتسبب عن الاكتشاف ، فهي الحيرة التي تدوم وتبقى . وفي ذلك يقول « التفكر في ذات الله تعالى جهل ، والإشارة إليه شرك ، وحقيقة المعرفة حيرة » .

وكما أن المعرفة تؤدي إلى الحيرة فهي كذلك سبيل الاتحاد بالذات العلية ، وفي ذلك قال : « إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب أعينهم وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عي ولا بكم ، وإنهم لهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت ، وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم في العلى حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا في سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة »

وتحدث ذو النون عن أسفاره التي كان فيها ينشد سبل الخلاص من شوائب الحياة وأكدارها قال : « لقد حصلت في أول أسفاري علما يرضى الخاصة والعامة ، وحصلت في ثانيها علماً يرضى الخاصة دون العامة ، وفي ثالث أسفاري حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة ، فغدوت شريدا طريدا. لقد حصلت من العلم في المرة الأولى التوبة وهي مقبولة لدى الخاصة والعامة على حد سواء وفي المرة الثانية وصلت إلى التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهي شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة ، وفي المرة الثالثة وصلت إلى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل